حين يتحول اختلاف الرأي إلى معركة

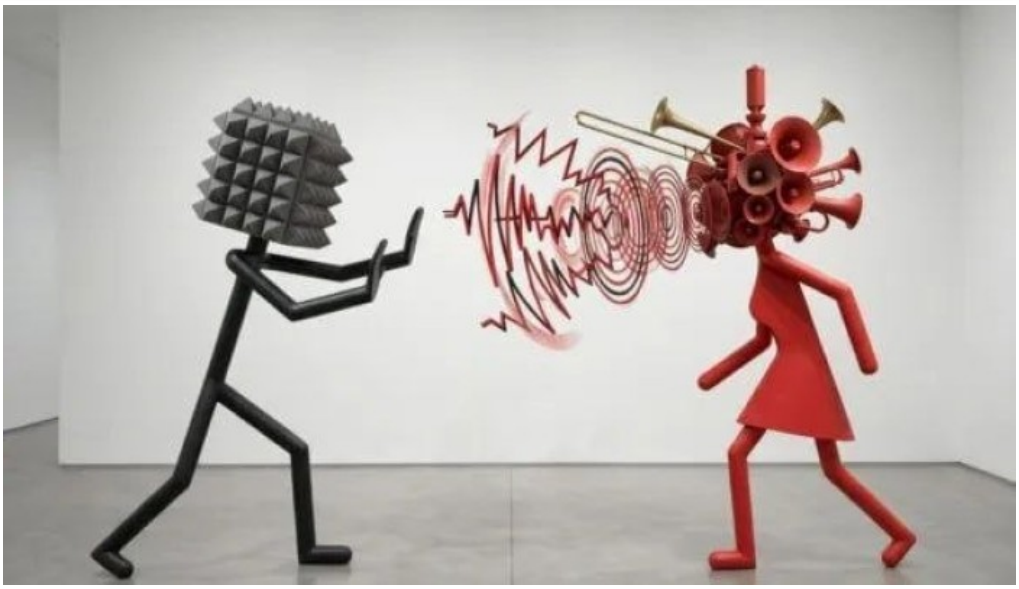

الجمعة 11 سبتمبر 2026 01:30 م

منذ أن عاش الإنسان وسط الآخرين، أدرك أن العقول ليست واحدة، وأن لكل شخص طريقته الخاصة في رؤية الأشياء. فلكل إنسان تجاربه وذكرياته ومخاوفه وقناعاته التي تشكل نظرته إلى الحياة، ولذلك فإن الاختلاف ليس شيئًا غريبًا، بل هو جزء طبيعي وضروري من حياة البشر.

لكننا في زمننا الحالي أصبحنا أحيانًا نخلط بين الاختلاف في الرأي والاختلاف مع الشخص نفسه. فعندما يعارضنا أحد، نشعر وكأنه يعارض وجودنا، وكأن وجهة نظره تمثل هجومًا على أفكارنا أو كرامتنا. وننسى أن من حق الإنسان أن يختلف معنا دون أن يتحول إلى خصم أو عدو، وأن إيماننا بفكرة ما لا يعني بالضرورة أننا نمتلك الحقيقة كاملة.

فالاختلاف الراقي لا يبدأ بسؤال: كيف أنتصر عليك؟ وإنما يبدأ بسؤال أهم: كيف أفهم وجهة نظرك؟

عندما يصبح الرأي جزءًا من الكرامة

المشكلة ليست دائمًا في اختلاف الأفكار، وإنما في الطريقة التي نربط بها أفكارنا بشخصياتنا. فعندما ينتقد أحدهم رأيًا نؤمن به، قد نشعر أن الانتقاد موجه إلينا شخصيًا، وعندما يرفض شخص فكرتنا، نتعامل مع الأمر وكأنه رفض لنا.

عند هذه النقطة يتحول النقاش من محاولة للوصول إلى الحقيقة إلى معركة للدفاع عن الذات.

وفي كثير من الأحيان، نشأنا على اعتبار النقاش ساحة لإثبات التفوق أكثر من كونه فرصة للفهم. فننظر إلى من يُسكت خصمه باعتباره المنتصر، ونعتبر ارتفاع الصوت دليلًا على القوة، وكثرة الحديث علامة على امتلاك الحجة، بينما نرى الاعتراف بالخطأ نوعًا من الهزيمة.

لكن السؤال هنا: ماذا يعني أن تنتصر في نقاش بينما تخسر شخصًا كان يمكن أن يبقى قريبًا منك؟ وما قيمة إثبات أنك على حق إذا كان الثمن إهانة الطرف الآخر أو جرحه؟

الاختلاف يبدأ من الإنصات

الإنصات الحقيقي لا يعني أن نصمت فقط، وإنما يعني أن نعطي الطرف الآخر مساحة حقيقية للتعبير عن رأيه، وأن نحاول فهم الأسباب التي جعلته يرى الأمور بهذه الطريقة قبل أن نصدر حكمنا عليه.

ومن هنا تبدأ تربية الإنسان على الاختلاف، عندما ندرك أن الاستماع إلى رأي لا يعني بالضرورة الموافقة عليه، وأن فهم وجهة نظر الآخر يجب أن يسبق رفضها أو انتقادها.

أحيانًا قد ينتهي خلاف كامل بمجرد أن يشعر أحد الطرفين أن الآخر يحاول فهمه، وربما تكون جملة بسيطة مثل: «أفهم لماذا ترى الأمر بهذه الطريقة» كافية لتخفيف حدة التوتر وفتح باب للحوار.

الكلمة تكشف أخلاقنا

في لحظات الغضب، قد تصبح الكلمات أكثر قسوة من أي شيء آخر، لأنها قد تصل إلى القلب وتبقى فيه طويلًا. وربما ينسى الإنسان تفاصيل النقاش بعد سنوات، لكنه يتذكر جيدًا كلمة جارحة قيلت له أمام الآخرين.

ولهذا فإن الاختلاف لا يكشف فقط مدى معرفتنا أو قوة حججنا، وإنما يكشف أيضًا أخلاقنا وقدرتنا على ضبط أنفسنا.

يمكننا أن نرفض فكرة دون أن نقلل من صاحبها، وأن ننتقد موقفًا دون المساس بكرامة من اتخذه، وأن نقول «لا أوافقك» دون أن نحولها إلى رسالة عداء.

فليس الرقي في امتلاك الرد الأقوى دائمًا، وإنما في القدرة على اختيار الكلمات التي تحفظ للآخر كرامته، وتحافظ لنا في الوقت نفسه على أخلاقنا.

لا تجعلوا الخلاف يهدم العلاقات

ليس كل اختلاف سببًا كافيًا لإنهاء العلاقات. يمكن أن نختلف مع صديق ونظل أصدقاء، وأن نختلف مع أحد أفراد العائلة وتبقى المحبة موجودة، بل يمكن أن تختلف مع أشخاص يحيطون بك في كثير من القضايا دون أن يتحول ذلك إلى خصومة دائمة.

ومع انتشار وسائل التواصل الحديثة، أصبح الانسحاب والقطيعة أسهل من أي وقت مضى. رأي لا يعجبنا، أو موقف يخالف قناعاتنا، أو كلمة لا تتفق مع أفكارنا، وقد يكون رد فعلنا الفوري هو إغلاق الباب وإنهاء العلاقة.

لكن العلاقات الناضجة لا تقوم على التشابه الكامل، وإنما على القدرة على الاستمرار رغم الاختلاف. فالجسر لا تكون مهمته الربط بين ضفتين متطابقتين، وإنما يصل بين ضفتين تفصل بينهما مسافة.

الاختلاف فرصة للتعلم

نحتاج اليوم إلى إعادة النظر في الطريقة التي نتعامل بها مع الاختلاف، وأن ندرك أنه يمكن أن يكون بابًا للتعلم بدلًا من أن يتحول إلى ساحة للصراع.

فالشخص المختلف عنا قد يضيف إلى رؤيتنا حتى لو لم ينجح في تغييرها، وقد يكشف لنا زاوية لم ننتبه إليها من قبل. وربما لا نغير موقفنا في النهاية، لكننا نخرج من الحوار بفهم أوسع وأعمق.

والمجتمع الذي يتقن فن الاختلاف هو مجتمع أكثر قدرة على النضج، لأن أفراده لا يشعرون بالخوف من تعدد الآراء، ولا يرون الأسئلة تهديدًا، ولا يعتبرون مراجعة الأفكار دليلًا على الضعف.

البطولة في احترام الاختلاف

في النهاية، ليست البطولة في أن تجعل الآخرين يفكرون بالطريقة نفسها التي تفكر بها، ولا في أن تجمع أكبر عدد ممكن من المؤيدين حول رأيك.

البطولة الحقيقية أن تقول ما تؤمن به بصدق، وأن تستمع إلى الرأي المخالف بعدل، وأن تدخل النقاش بعقل مفتوح، ثم تخرج منه دون أن تحمل في قلبك كراهية للطرف الآخر.

فأجمل أشكال الاختلاف هو ذلك الذي يمنح العقول حريتها، ويحافظ على الود بين القلوب، ويصون للإنسان كرامته.